من تراب الطريق! (١٦٦)

نظارة

محمد عبدالله محمد (*)

فى مستهل قصيدة " نظارتى " من ديوان " العارف "، للأستاذ المحامى الجليل محمد عبدالله محمد .. يقول الشاعر الحكيم :

نظَّارتى بعد هذِى السِّن باردةٌفيهاالوضوحُ بـــلا دفء المواعيـــد
كأنها خلْفهـا غيرى تُصاحبـه بين الأباطيـل أو بين التجاعيـــد
صِدْقُ العناقيد والأغصان كَذَّبهُ صمتُ الرمالِ وإطراق الجلاميـــدِ
إنَّا وحيدون هذا كُلُّ ما وَصَلتْ إليه عينى على أرضِ المواجيـــدِ

يخرج الشاعر الحكيم من هذه الرباعية، إلى أخرى يسخر فيها من تيه الآدمى بذاته وأمجاده، ومن كبره الذى لا يفارق عزفه وإنشاده تحت رايـة العقل، ليخلص إلى أن المخلوق ما هو إلاّ ومض إخفاء وإيجاد الخالق عز وجل ..

ماذا تَرَى الأرض إنْ ترصُدْها من زُحَلٍ وهلْ ترانى وأبعادِى وأمْجَـادِى
نَخْفَى وَنصْمتُ غرْقَى فى ضآلتنَـــا فيم احتجاجى وإنكارى وإبعادِى
ورايةُ العقلِ أطْويها وأنشُرُهـــــا وذلك الكبْرُ فى عَزفِى وإنْشَادِى
عيونُ بُعْدِكَ تُخْفِينـــا وتُـوجِدُنَـــا لأننا وَمْضُ إخْفَـاءٍ وإيجـــادِ

يمضى محمد عبدالله محمد فى رباعيات هذه القصيدة التأملية، فيتعجب من حمى غريزة التملك الضريرة التى يدفعها الطمع إلى القتال من أجل ما سوف تفقده يقيناً، وكيف أن النفس عدوة القيود حتى وإن كانت من حرير، ليسخر من انجراف الآدمى إلى الاقتناء والثراء، والاعتراض على نـصيبه

(*) المال ٢٠٠٨/١١/٢٠

مـــن الخلق !.. فهل يتأمل الإنسان فى النمـــل والأفيـــال أو الأعـــشاب والشجر .. هل هى تسأل خالقها ماذا أعطاها وماذا حجبه عنها ؟!.. لو فهم الإنسان لأدرك كنه الحياة، وفهم أن عزفها لن يوقفه سخط منه أو كدر !

يتنقل هذا الشاعر الحكيم من رباعية إلى أخرى متـــأملاً فـــى الحيـــاة والإنسان، ليقف فى نهايتها حائراً بين السؤال والجواب .. مدركا أنـــه لـــم يؤت من العلم إلا قليلا، عائدا إلى نظارته التى بدأ بها رحلته أو قـــصيدته، وماذا محت أنامل السن من ذاكرته وتخلل سطورها فراغات وأخطاء ..

مهاجرُ القلبِ هل حَدٌّ لغُرْبَتِـــــه ... لا حَدَّ للبُعْـــد إذ لا حَدَّ للأمـــل
من أرضِهِ طار نحو الشمسِ تُدْفئهُ ... ولا يواجـــــه غيرَ الـــبردِ والبللِ
أذاك فى خَلقِهِ شـــىءٌ يُساقُ لـــه ... كما تُساق طيـــورُ البحـــرِ للنُقَلِ
نَشْوَى بما ليس تَدْريـــه مُنَوَّمـــة ... فى طيْرِها بنـــداءِ الشوقِ والأَجَلِ

* * *

أناملُ الســـنِّ تمحـــو خَطَّ ذاكرتى ... وفى الســـطور فراغاتٌ وأخطـــاءُ
يعشو المساءُ كأن الليل سارقـــه ... وقد تواطـــأ أطْيـــافٌ وأضـــواءْ
خبـــا نهارٌ وولّـــى هل يُعَوِّضه ... أنسُ السُّرى وســـماءٌ فيه قَمْـــراءْ
وأن تَسُوقَ حديثـــاً قد يصادفُهُ ... أذُنٌ وبسمةُ إعجاب - وإطـــراءْ